المشرق

في الواهمة والغريزة

بقلم الاب لويس دترفال اليسوعي

لم يذهب من خاطر القرّاء ما كنّا وعدنا بهِ من مواصلة الكلام عمّا يتعلّق بحواسنا الباطنة فانجازًا للوَعد ها اننا نأخذ اليوم في استئناف سيرنا لنتمّم ما يختصّ بهذه القوى وقد بقي ان نبحث في الواهمة وقوّة الغريزة

١ تعريف الواهمة والغريزة

قد مرَّ في المشرق (٤ : ٥٣١) انّ الواهمة او المتوهّمة قوّة يدرك بها الحيوان ما تعجز عنهُ سائر الحواس اي النافع والضارّ والملائم والمضادّ من عالم المخلوقات . قال في هذا الصدد القديس توما شمس المدارس: « ان الشاة اذا رأت الذئب مُقبلًا هربت منهُ ليس لسماجة لونهِ او شكلهِ بل لكونهِ عدوًّا طبيعيًّا والطير يجمع الهشيم لا لالتذاذ حسّهِ بل لكونهِ مفيدًا لتعشيشهِ » اه. ففي هذين المثالين ردّ على من لا يبني افعال الواهمة الّا على اللذة والالم السابق اليهما شعور الحيوان غير اننا نجتزئ هنا بالإلماع الى هذا الشطط مؤجلين اوفى دحضه الى ما بعد

فنقول الان انّ للواهمة شقيقةً او بالاحرى مرادفة في افواه الناس وهي الغريزة او الفطرة (instinct) والحق يُقال انهُ ليس من فاصل معنوي ذي شأن يفصل بينهما نظرًا لموضوعهما لانك اذا تتبّعت حقيقة الغريزة في التصانيف الفلسفية انما تستخلص انها قوّة طبيعية تدفع الحيوان ناطقًا كان ام غير ناطق الى مباشرة بعض اعمال مفيدة لحفظهِ او كمالهِ طوعًا من دون تروٍّ . وربما اتت الغريزة بمعنى الطبيعة فكانت حينئذٍ اوسع من

الواهمة نطاقاً لاشتمالها على مجموع القوى والامیال المطبوع عليها الحيوان بيد اننا نؤثر معناها الاول لاصالته ولذا لا بأس في استعمالنا الفاظ الواهمة والغريزة والفطرة على حدّ سواء وبمعنًى واحد

ومن المدققين من يصف الغريزة بقوله انها قدرةٌ للعمل في غاية دون قصد هذه الغاية وبغير تهذيب سبق . فنعم التحديد وهو جامع مانع . اجل انَّ للحيوان حركات وسكنات يقضي بها وطرًا يجهلهُ ويهيّئ لنفسهِ مرافق لا تبلغ اليها قواهُ فما بال السنجاب مثلاً يتزوّد صيفًا بثمار البندق لشتاء لم يَذُق بعد بردهُ القارس وجوعهُ الأليم وما للعصفور المرّبى في قفص اذا نقف وأطلق من سجنهِ يشرع في ابتناء عشّ كباقي ابناء جلدتهِ بنفس المواد المستخدمة منهم وعلى نفس الشجرة وعلى نفس صورة اعشاشهم مع ان لا احد خرّجهُ على ذلك ولم يتسنَّ لهُ الاخذ بمثال غيرهِ ولا يعلم ان هذا البيت سيفيد خصوصاً ما يتولد لهُ من الفراخ . ومما يروى بهِ من هذا الباب ان صغار البط اذا احتضنتها دجاجة ونقصت بيضها تسرع الى اقرب بركة وترمي بذاتها في المياه توًّا غير مبالية بصراخ امها بالذخيرة المرتعدة على سلامتها فمن يا هذا جرّأ هؤلاء على خوض غمرات المياه ومن اقنعهم بمهارتهم في السباحة الّا امهم الكبيرة اي العناية الالهيَّة بواسطة الغريزة

امّا في الانسان فليست هذه القوّة على ما هي في البهائم اتساعًا وشدّةً لعدم الحاجة اليها بهذا المقدار غير ان مناعيايا تظهر جليًّا في بعض الظروف لا يبقى معها للريب مجال . فاذا زلّت منا قدم فبسط ذراعينا حالًا صونًا للموازنة وان هدّدتنا ضربة حوّلنا الرأس او غمضنا العينين الى غير ذلك والّا لأُصبنا احيانًا بآفات قاضية او دهانا الموت من حيث لا ندري . اما عادةً فلا يخلو فعل العقل ان يتداخل في حركات الغريزة فيقوّم اودها ويزيدها درايةً حتى اضطرَّ الامر بعضَ العلماء في تغيير اسم الواهمة عند اطلاقها على الانسان فسمّوها بالمفكّرة (cogitative) لدنوّها من التفكّر وانقيادها لهُ في معظم اعمالها . ولكن تأمّل يا صاح احتياطات الطبيعة التي حقًّا لُقّبت بالامّ الحنون فانَّ فعلها في الطفل عجيب ولمّا كان الطفل لم يتملّص ذهنهُ من قُمط الحداثة والنقصان وكان بسببهِ عرضةً لاهوال تدوأها البصيرة عن سائر الناس البالغين اشدّهم فقد برزت بهِ الواهمة في اكمل درجة منها في المرء الكامل الادراك فكيفما تقلّب الرضيع ارشدتهُ

الواهمة تلافياً لكل خطب ومهما لاح منهُ من رغبةٍ او نفور كان ذلك بايماز من الغريزة او تحت امرتها المستقلة

٢ في خواص الغريزة

لا يعتاص على من اعمل في عوائد الحيوان عامل النباهة والتمعُّن الاطلاع على اهمّ خصائص الغريزة. واول ما يجار منها للعيان هو الكمال الاصلي في جميع ما يأتيهِ الحيوان تحدوًا اليهِ من الغريزة. فالمع مثلًا الى الطير ترَ انَّ اول عشٍّ لا يقل عن آخرٍ احكاماً لا في خيار مواد البناء ولا في متداميهِ. وكذا قل عن النحل فترى مَن لقّنها ترتيب الخلايا المسدَّسة الجوانب ومن هذَّبها حتى تُتقن من اول دفعة ذاك البناء العجيب الجامع من بهاء الهندسة ودقّتهِ ومتانتهِ ومنافعهِ ما قضى منذ القديم انذهال علماء المساحة. انما مرشدها وهاديها الغريزة

وبعد الكمال يظهر التفرُّد في صنيع الواهمة ويكفي لتحقيقهِ اجالة البصر في عالم البهائم لا غير فلكل صنفٍ من الوحوش مزيَّة عن الآخر في حفر مأواهُ او تدبير وجوهِ. وهكذا في طوائف ذوات الاجنحة والحشرات والاسماك. ثمَّ لاجناس الحيوانات المختلفة اعمال وحركات وحيَل في تحصيل الرزق وسائر اسباب الرفاهة ما خُصَّ بهِ جنس دون غيرهِ فما اعظم اليون بين وثوب الاسد والنمر على فريستها بغتةً وروغان الثعلب ومكره لولوجهِ قن الدجاج ثم تربُّص العنكبوت متزويًا في طرف نسيجهِ او وسطهِ حتى يباغت ما ينشب بهِ من الهوام

الَّا انَّ لهذا التفرد تُضاف ابدًا المداومة وحِدَّة المسلك فلا يغيّر الحيوان شيئاً من اساليب العمل ونتائجهِ وكما قيل عند عامَّة الافرنج انَّ لفظتي «احسن واسوأ» لا اثر لهما في قاموس البهائم ولذلك تجد انَّ ما اخبرهُ الطبيعيون القدماء كارسطو وبلينيوس عن طبائع العجماوات وعوائدها وافراخها وتربية صغارها الخ هو نفس ما نراهُ الى ايامنا هذه وما سيلاحظهُ خلفنا على ممرّ الادهار. ورغماً عن معاشرة الحيوان البشر وسائر البهائم لم نرَ جنساً من اجناسهِ تصدى يوماً ليحذو حذو غيرهِ والاستفادة بتقدُّمهِ. ولو كان الحيوان حائزًا على العقل كما يريد ذلك رهطٌ حُرموهُ بقولهم ذلك لكنَّا شاهدناهُ خاضعاً لاوامر تلك الخصلة الكريمة فيبدل طرائقهُ في كثير من الاحوال ويقوّم ويصلح وفي الاجمال ينتفع من فوائد العلوم والصنائع. لكن الامر نقيض ذلك تماماً وجلّ ما عثر عليهِ

الباحثون في طباع البهائم بعض المطابقة للظروف الخارجة كما رُوي عن بطلة كانت قرب معمل حكثرت حولهُ الغابات المدنيَّة فلمَّا ارادت تشييد وكرها استعانت بما وجدتهُ من قطع الشرائط الحديديَّة فجاء الوكر اتقن هندامًا بهذه الوسيلة

وآخر صفة الغريزة في الحيوان هي العصمة من الخلل بمعنى انَّ هذه القوة تدفعهُ الى ما فيهِ صلاح طبيعتهِ وسدّ حاجاتهِ لا تحيد بهِ الى ما فيهِ فساد قوامهِ وبعبارة اخرى ان الحيوان لا يخطأ البتة بل جميع مساعيهِ تأتي طبق غرض الطبيعة فيهِ. هذا اذا تُرك الحيوان وشأنهُ دون ان ينصب الانسان في سبيلهِ اشراك الدهاء. ويحوك في مصنع عقلهِ الفائق فنونًا من المكايد فيدسُّ لهُ السمَّ في الدسم ويصطادهُ بضروب من الحيل هداهُ اليها تفنن قريحتهِ. ولا ينفي ذلك كمال الغريزة في الحيوان بل تثبتهُ بالاحرى لان الانسان لا يحاول خداع البهيمة الَّا معوّلًا على تلك القوَّة اذ يستر غشَّهُ تحت مظاهر دواعي العافية والهناء.

واعلم ان الغريزة يمكن اعتبارها من حيث موضوعها وغايتها على وجهين وجهٌ يختص بافراد الجنس ووجهٌ يؤول الى خير الجنس باجمعهِ. امَّا الافراد فالراهمة تحثهم على التماس ما فيهِ حفظ حياتهم ورغدها على مقتضى قول الفلاسفة ترشدهم الى ان يكونوا ويكونوا حسنًا (ad esse et bene esse) فمن هذا الوجه تراهم يطلبون الرزق ويحتالون على الفريسة ويتأنقون في بناء المسكن وتحسينهِ وتجهيزهِ بكل اسباب الرفاهة ويتفقدون بعض الادوية من حشائش ونبات لدفع الامراض او استدراكها. واممَّا ما يفيد الجنس كلهُ فهو شهوة التناسل التي لولاها لاضمحلَّت جميع طوائف المجاوات منذ امد مديد

وهنا دعنا نتأمل هنيهةً قدرة باري البريَّة وحكمتهُ الفائقة التدابير فانهُ عزَّ وجلَّ قد علم انَّ مجرَّد الميل الى التوليد لا يغني الجنس شيئًا إلَّم يؤتمن على حياة المواليد. ولهذه الغاية قد اودع قلوب الوالدين لاسيما الاناث رفقًا بصغارها افلاذ اكبادها فربَّما رأيت الأمهات يقتحمن اعظم الاخطار ويكابدن اشدَّ الاهوال في سبيل خير ولدتهنَّ وليرددن عنهم سهام المنون. ومن مثَّا لم تترقرق مقلتاهُ حنوًّا عند رؤيتهِ طول اناة الرنقاء (القرقة) لاحتضان بيضها واذا نقنقها زاد شغفها بالزغاليل وتكدح الكدح المفرط في تدفئتها واقاتتها ووقايتها من كل آفة فاذا اعتبرنا ان هذا دأب جميع الامهات مع ذراريها لا بدَّ

من ان تترطّب السنتنا حمدًا للعناية الصمدانيّة البالغة من غاية الى غاية بالقوّة والمدبرة كلَّ شيء بالرفق (سفر الحكمة ٨ : ١)

ومن اقوى الذرائع لصيانة عدّة اجناس من البهائم وتحسين حالتها غريزةُ الاستئناس فهي بمثابة تابع ومتمّم لفطرة التناسل اذ بهـا تتألّب العُجم إلبًا واحدًا وتجيء باعمال مفيدة بل ضروريّة تستحيل على الافراد فما اجلَّ فوائد الالفة لاثوال النحل في اصطناع خلاياها ولكتائب النمل في جمع زادها ولجماعات الطير الراحلة كالسنونو واللقلق والملك الحزين . وما انكد ما كانت حالة تلك الحيوانات لو عدمت ذاك الميل الى الوئام وأُهملت وشأنها فلولا تلك الفطرة وذاك الميل الغريزي الى الانضمام لتلفت وهلكت لا محالة

اما الانسان فارتياحهُ الى الألفة هو اشدّ واعم منهُ في الحيوانات حتى يتعذّر عليهِ استخدام كثير من قواهُ وخصائله الفريدة الّا في مساكنة ابناء جنسهِ فخصَّ منها بالذكر قوّتهُ النطقيّة التي تفرز بينهُ وبين طور الحيوان وهي تدفعهُ الى الهيئة الاجتماعية بحيث لا يمكنهُ ان يعيش دونها . فهذه قضيّة راهنة ثابتة الاركان لا تنقضها سفاسف المخرقين كجان جاك روسو وغيرهِ من اهل السفسطة

٣ اوفى بيان لتعريف الغريزة وتفسير كيفية عملها

لا يكفي العاقل تأكيد الامور واطلاعهُ على ظاهر مجراها بل ديدنهُ عجم عودها واستخراج كامنها من بارزها . والحال ان ظواهر الواهمة بيّنة جليّة لا يختلف في وجودها اثنان ولم تُعرف تلك القوّة بعض المعرفة الّا بواسطتها لكن يا ترى ما هي حقيقة تلك الغريزة وماهيّتها القصوى فهل هي قوة خاصّة متميزة عن بقيّة قوى الحيوان تميزًا حقيقيًا وهل ما تباشرهُ من الاعمال يخرج عن حيز سائر القوى البهيميّة ام هي فرعٌ منهـا او مجموع مفعولات بعضها . فهذه مسألة قد اشغلت ولم تزل تُشغل اذهان اولي العلم حتى اتت آراؤهم متباينـة بل متناقضة فيتحتم علينا اذ ذاك النظر فيها مليًا قصد البلوغ الى نتيجة مرضية تريح قلق النفس وتحيّرها ما امكن ولذا نذكر اهمَّ الطرائق التي يدّعي بها العلماء حلّ المشكل فنرذل الفاسد منها ونتحرّى ما هو اقرب الى الصواب

١ اعلم انَّ من الطبيعيين مَن يعزون اعمال الواهمة كلها الى سائر القوى الحيوانيّة من احساس وتخيّـل وتذكّر فحجّتهم انهم يرون عادةَ الحيوان يقتصُّ آثار ما ادركهُ

بالحواس شهيًا ويتجنّب ما وجده كريهًا متبعًا بذلك حيّاتهُ وحافظتهُ فالكلب مثلًا يهرب ممّن اوسعهُ ضربًا والطير يبتعد من الشرك او القفص لسابق بلائهم انّ في كلا الامرين ألمًا وسوءًا. والحق يُقال انّ هؤلاء العلماء لا يفسرون من الواهمة ذرّةً لانهم برأيهم المذكور ينفون كون الواهمة قوّة منفصلة عن سائر الحواس فيجعلونها شُعبةً من الحس المشترك. امّا ما يتشدّقون بهِ من إدبار الكلب عن قابلهُ بالسياط ورغبة الطير عن الدنو الى آلة عذابهِ وغير ذلك فهو ضعيف واهن لا تقوم منهُ لمذهبهم قائمة لانهم انما ينسبون والحالة هذه مفاعيل الغريزة الى معرفة ما في الموجودات من اللذة والكراهية ولا تكون هذه المعرفة على تولهم الّا بادراك احد الحواسّ. ولكن أنّى بإمكان ذا الادراك في كثير من افعال الواهمة؟ فما الداعي مثلًا للشاة ان تفرّ هاربة من انياب الذئب قبل امتحان اخلاقهِ الشرسة؟ واذا زعموا انّ الشاة تهرب من ابي سرحان لشناعة خَلقهِ أجبناهم انهُ لكان الاولى الهارب من بعض الكلاب الحارسة وهي أسمج منظرًا من الذئب. وكذلك ترى الطير يفرُّ من الباشق وان لاح لهُ لاوّل مرة فليس خوفهُ منهُ لمنظرهِ المريع ومنظر الغراب يجاريه قُبحًا بل يزيد عليهِ شناعةً ومع ذلك يألف العصفور الغربان ويأنف من الباشق

ثمّ اذا كانت أفعال الغريزة مستندة الى إدراك ما تقرّبهُ الحواس او تمجّهُ فقل لي ناشدتك الله ماذا وجدت النحل من الفوائد واللذات في ابتناء شهدها على شكل مخاريب مسدّسة الاضلاع حتى لم تعدل منهُ شيئًا على كرّ الازمان. ثم ماذا حدا باول العناكب الى صناعة نسيجهِ على هيئة ثابتة معاومة لا تفارقها قطعًا. هل استحسانهُ لتلك الصورة وتفضيلهُ لها على سواها لعلّل هندسيّة او ماديّة؟ هل حملهُ على ذلك تهذيبهُ او الاتفاق؟ كلاّ ثمّ كلاّ فانّ كل هذه الاسباب لا تصلح في الواقع فيبقى القول بان الغريزة تمتاز عن سائر القوى البهيميّة وانّ نسبة أعمالها الى اللذة والكراهية فقط لا اصل لها

٢ الشرح الثاني هو لدروين وسپنسر حملاهُ على مبادئها الفاسدة في الارتقاء والتحوّل (transformisme) وقوّة التوارث فزعما انّ ما نراهُ من ظواهر الواهمة في البهائم انما هو نتيجة توالي الاختبارات الجارية بلا انقطاع ضمن كل جنس من الاجناس وبهذا الانتقاء اليومي تكتسب افراد الخلف درجةً من الحذق والفطنة لم يبلغها السلف

قبلهم. اما الواسطة لنقل هذه الخصال المكتسبة فهي التناسل بحيث يرث الاولاد ما احرزهُ اجدادهم في كرور الاجيال

على انَّ هذا الشرح اختراع عجيب بناهُ هؤلاء على تخيلات محضة لا يسندونها الى سند ثابت وليس قولهم هذا في تفسير أعمال غريزة الحيوان باجدى نفعاً من شرحهم لاصل الانسان. واذا تتبَّعنا أخلاق العجماء لم نجد فيها ما يتقرَّر بهِ هذا الترقي. فالنحلة مثلاً في عهد ارسطو لم تكن اقلَّ دربةً منها في أيامنا نحن ابناء عصر النور والتقدُّم وما زاد كلبنا امانةً على امانة ونباهة كلاب الأقدمين ولعلَّ أصحاب الفكاهات ينسبون الى بعض حيواننا التقهقر والقصور اذ لم نسمع في زمننا بذكر مأثرة كمأثرة الارزّ الذي خلَّص الرومان من جيش البرابرة لمَّا باغتوا مدينة رومية وأوشكوا أن يفتحوها

واذا استقصينا البحث في رأي هؤلاء الدرويينيين وجدنا انهم ذهبوا الى هذا الزعم الباطل لمعاينتهم في بعض الحيوان عادات عرضيَّة انتقلت بالتوليد من الآباء الى الابناء. وخصوصاً متى توسَّطت عناية المرء في مساعدة الطبيعة. فقد ثبت مثلاً انَّ الكلب السلوقي يورث أبناءهُ ميلهُ الى مطاردة القنيص واسترواح الطريدة بقوَّة شمِّهِ. ولكن لا بدَّ هنا من ملاحظتين الاولى انَّ الحيوان لا يكتسب مثل هذه الاميال غير الطبيعيَّة الَّا بجهد الانسان وسعيهِ المتواتر ليغرسها في نفسهِ. والثانية انَّ هذه الاميال لا تستقرُّ زمناً طويلاً في الصغار إلَّم يداوم الانسان على تربيتها وترويضها بل يرجع الحيوان الى مجرَّد غريزتهِ بعد أجيال

٣ وقد زعمت طائفة أخرى انَّ القوَّة الراهمة ليست بغريزة ولا موروثة وانَّما هي ملكة يكتسبها الحيوان مدَّة حياتهِ لتدبير شؤونهِ الخاصَّة وان سألتهم لِمَ يصنع الحيوان هذا ويدع ذاك اجابوك لانهُ اعتادهُ رويدًا رويدًا. لكنَّ هذا الجواب لا يشفي غليلاً وتردُّ قولهم الشواهد التي سبق ذكرها وهي تبيِّن انَّ الحيوان يفعل ما يفعل مباشرةً دون ارتياض سابق. ونضيف الى ما تقدم انَّ للمادة خواصَّ تتنافى خواصَّ الغريزة فالمادة مكتسبة والغريزة فطريَّة. المادة تنمو وتنقص حسب المباشرة والارتياض والغريزة راسخة ثابتة لا يطرأ عليها تغيير. ألا ترى مثلاً عشَّ الطير فانهُ لا يختلف كمالاً بتفاوت سني عمرهِ واوَّل عشَّ يبنيهِ من حيث الإحكام كعشهِ الاخير قبل موتهِ. فسقطت

اذن حجّة هذه الطائفة وتبيّن ان مذهبهم مناقضٌ للعقل والاختبار ليس لهُ من الصواب حظ

٤ ومن الفلاسفة المستقيمي الطريقة الصائبي الآراء من يقرُّ بانَّ الغريزة في الحيوان موهبة من الله جليلة ترشدهُ الى ما فيه نفعهُ على حدّ الشعور والتخيُّل غير ان هؤلاء لا يجسرون على اقتحام المشكل فيستكفون عن فكّهِ. وهي خطَّةٌ مُحقَّةٌ لانَّ هؤلاء العلماء مع كونهم يعترفون بقدرة الخالق ويؤدّون لهُ ما يستوجبهُ من الاكرام يسومون عقل الانسان خسفًا ويرتجون دونهُ أبواب صرح العلوم الشريفة اذ يُحجمون عن طلب الاسباب وذلك أقصى ما يتحرّاهُ الفيلسوف الحكيم. نعم اننا نسلّم بان الواهمة قوَّةٌ اجدى بها البارئ على غايتهِ ولكن أيمنع ذلك ان نبحث في احوالها وشرح ظواهرها وتعليل خواصّها؟ لا لعمري وان قيل انَّ الانسان قاصر عن ادراك كثير من علل هذه الظواهر اجبنا انَّ بعض الحقيقة خير من عدمها. لانَّ ذلك يشفي شيئًا من غليل الانسان وشوقهِ الى معرفة اسرار الطبيعة وان لم يدركها تمامًا

٥ فلنأتينَّ اذن الى إبداء رأينا في هذا البحث فنقول: ان الراغب في حسم بعض هذا الجدال لا بُدَّ لهُ من ان يتحاشى في ما ينسبهُ الى الحيوان كل ما يُشتمُّ منهُ رائحة التجريد والتعميم لانَّ ذلك مختصٌّ بالانسان وهو من اعمال العقل. امَّا البهيمة فلا تُدرك الَّا المفردات. واذا قال القائل انها تبتغي كونها وخيرها وانها تتأثَّر باهوال الموت وتأنس بعواطف الابوَّة او الامومة اجبنا انَّ هذا القول ضرب من الاستعارة فقط. وكذلك من الشطط ان يُعزى الى الحيوان طلب غاية من حيث هي غاية واذا رأيناهُ يسعى وراء غاية فهو اليها مدفوعة اذ لا عهد للعجماء بغاية حركاتها ولو امكنها ذلك لجاوزت الانسان في عقلهِ وارتفعت فوق طورها الذي خُلقت لاجله

فاذا ثبت ذلك قلنا انَّ الحيوان لا يباشر العمل الَّا محمولًا عليهِ من الظروف الحاضرة. وحالتهُ في ذلك كحالة الابله البليد الذي ينبعث الى أعمالهِ وهو لا يفطن الى ما يصنع. هكذا الحيوان اذا تحرَّك كانت حركتهُ منقادةً لما يستفزُّهُ من الامیال والشهوات في وقتهِ الحاضر اعني انَّ أعمال غريزتهِ تتقيَّد بحركات الاهواء البهيميَّة المثارة بهماز شعورهِ عند حضور المحسوسات. فان سُئلنا: «لِمَ ينهج هذا الحيوان منهجًا دون آخر في ظروف معلومة» اجبنا: «انَّ الحيوان المذكور سلك على ذلك النمط لانهُ لم

يمكنهُ في الاحوال التي وُجد فيها ان يركن الى نمط آخر». وان استزدتني وسألت: «ولِمَ لم يمكنهُ ذلك» قلتُ: «لما غلب عليهِ من الامیال بازاء الحسوس الذي شعر بهِ». وان اردفت قائلًا: «وما المثير الداخليّ لهذه الاهواء والاميال» اجبتك: «انما المثير لذلك بنيتهُ الطبيعيَّة وأجهزتهُ الآليَّة الخاصَّة». فهذا جواب اجمالي ينبغي ان نقررهُ في الاذهان باجلى بيان فنقول:

نعم انَّ في بنية الحيوان علة تنويع أعمالهِ الغريزيَّة. فانَّ الله جعل لكل صنف من الحيوان أعضاء وأجهزةً اتاحها لهُ لوظائف معيَّنة لانَّ جهازًا بلا عمل يُستكمَل بهِ لأمرٌ ينافي حكمة الخالق. ثمَّ انهُ من المقرَّر انَّ جوارح الحيوان وقواهُ اذا لم يُصبها خلل ترتاح الى القيام بوظائفها وتأخذها بها هزَّة الطرب ويهتاج معها الجسد. وناهيك من دلائلهِ ما نشعر بهِ من الارتياح عند كسرنا سورة الجوع وتخميد لظى عطشنا. امَّا داعي تنعمنا الحقيقي بعد الضيقة الغير المطاقة هو نهوض المعدة باعباء وظيفتها حُرمت مزاولتها مدة غير منتظمة وكذا قُل عن آلات سائر وظائف حياتنا الآليَّة كالرئة والقلب. ثمَّ ان جمهور العلماء قد اتفقوا على انَّ في الحيوان اذا وُجد بازاء ما يسدّ احدى حاجاتهِ الطبيعيَّة حركاتٍ وظواهرَ فيزيولوجيَّة تنبئ بها للغريزة عليهِ من السلطة. ضَعْ أمام الفرس علفهُ وإزاء الكلب رمَّة عظمهِ لا تلبث ان ترى سيول الرضاب تنهلّ من فمهما. وربَّما امتحنَّا ذلك في ذواتنا عند حضور طعامنا. ومن الامثال السائرة عند الغربيين: ان جيّد الأكل يملأ الفم ماء (faire venir l'eau à la bouche)

فما المانع الان من إحالة هذه اللاحظات على سائر اعضاء واجهزة البهيمة. كيف لا يشعر بميل للهجوم على الظبي المانس خفَّةً ورقة ذاك الضرغام الكاسر او النمر الصائل المعطى من الطبيعة اظفارًا وأنيابًا وشهوةً للَّحم تحملهُ على ان يبطش بالفريسة ويتضرَّج بدمائها. ومثلها جوارح الطيور التي منحتها يد العلي مناقارًا ثاقبًا ومخالب خارقة تزجّ بها على يُغاث الطير فحدِّث ولا حرج عمَّا أُوتي كل جنس من الآلات والاسلحة والعُدد المتنوّعة لا سكون لافرادها الَّا في مباشرة ما تقتضيهِ من الافعال على اختلاف ترتيبها. فلا عجب اذ ذاك من وَشْيِ العنكبوت لبُرْدةِ مَسكنهِ فانَّ رَسْم نسيجهِ الرقيق كان قد خُطِّطَ على نوع ما في ألياف جَوْفهِ المهيَّأة للبروز ثمَّ في مشط أصابعهِ الرفيعة ثم في اعضالهِ اللَّيِّنة وكل اجزاء جسمهِ المستعدَّة لعمل الحياكة. ولا غرو اذا اعتاد

الطير جمع الهشيم بعد ما رُزق من حدَّة المنقار وخفَّة القوائم ولا من اختفاء دودة التزّ في فياجة تريرها المحكمة الصنع الانيقة الشكل اذ كان ذاك الخيط المتجمّع في داخل اغشيتها قد امسى لها ثقلاً لم تزَ محيصاً منهُ الَّا في لفظهِ خارجاً لكن على اسلوبٍ يكون من نتيجتهِ صيانتها مدَّة اشهر رقادها. امَّا الدجاجة فهل من امرٍ مُذهل احتضانها للبيض مع ما تشعر بهِ في حضنها من الحُكاكة الشديدة التي يمكن اجراؤها حتى في الديك بقليل من الحلّ فتراهُ يطالب الاحتضان شتاء لحرقة جلدهِ ولولا خوفنا من التوسع الملّ لاستشهدنا هنا بشهادات نخبة الطبيعيين المراقبين لاحوال الحيوانات وعاداتها منهم المسيو فابر (Mr Fabre) والمسيو هنري جولي (H. Joly) (١ والاب دي بونيو (٢ (de Bonniot) اليسوعي وغيرهم فكلُّهم صوت واحد ليثبتوا ما يوجد من التلّق الجوهري بين الغريزة وخواصّ بنية كل حيوان واهوائهِ وأدوات تركيبهِ الطبيعي

وقد زاد بعضهم انَّ الحيوان يولد ببعض الصُّور الخياليَّة تحضّهُ الى اتمام الحركات اللازمة لخيرهِ عند الفرصة وقولهم هذا لا يتجاوز حدود الحدس والتخمين لكنَّهُ يكشف القناع عن امور كثيرة غامضة نجدها في واهمة الحيوان ويصعب ادراكها كانس البهائم بعض شاكلتها ونفورها من غيرها

فلاح الآن ما لُمّدعانا السابق من الصواب لمَّا اجبنا انَّ الحيوان في ظروفٍ معلومة يندفع للعمل على ذلك النمط الخاصّ لعدم امكانهِ اذ ذاك ان يلجأ الى نمطٍ آخر. والحقُّ يُقال ان العجماء لمَّا كانت عادمة النطق والحريَّة لا تعمل الَّا للدقيقة الحاضرة والدقيقة الحاضرة محدودة محصورة تماماً باحوال الحيوان الباطنيَّة وما يكتنفهُ من عالم الكائنات فحيثما اتَّجه الحيوان ومهما أتاهُ في سلسلة اوقات حياتهِ كان هو الامر الوحيد الموافق لهُ آنئذٍ بل الامر الفريد المحتوم عليهِ عمادهُ لانهُ لا خطَّة للعجماء ولا قصد الَّا خطَّة الوقت الحاضر وقصد ما يلائم فيهِ احوالهُ برمَّتها وحتَّا ان البهيمة تطيع لكل ما سنَّهُ الجبريّون (Déterministes) من الاحكام والشرائع الَّا انَّهُ كان الاجدر بارباب هذا التعليم ان يقفوا في طَوْر البُهم ولا يتعدّوا

١) راجع كتابهُ المنون الانسان والحيوان (L'Homme et l'animal)

٢) لهُ تآليف لذيذ المطالعة لطيف المعاني والعبارة دعاهُ مقابلة البهيمة بالانسان (La Bête comparée à l'homme).

الى طور البشر فيسلبوا الانسانَ بذلك قوّة ارادته واختياره. فانهم بهذا العمل يجعلون المرء لُعبةً بين يدي امياله وحواسه وجهازه تتجاذبهُ الحوادث كيفما تقلّبت وتقوده طَوْعَ العنان

هذا ما رأينا اثباتهُ في تعريف القوّة الراهمة في الحيوان. فلا نخال القرّاء الكرام يفسروننا الى العدول عن جادّة الصواب لأنّ مذهبنا يحيد عن ضلال من لا يميّز الغريزة عن سائر الحواسّ فيُوقف افعالها على مجرّد لذّة المشاعر ثمّ يفرزنا عنّ يخلط بين الغريزة والملكات المكتسبة ويفصل اخيرًا بيننا وبين قوم أتقياء ينسبون فاعلية الراهمة الى الطبيعة ومنشئها عمومًا دون التصدّي الى حلّ عقد المسألة الخاصّ واستقصاء المحوَر الخفيّ الدائرة عليه المعضلة كلها جمعاء. والسلام

درس العربية في اوربّة

في القرن السادس عشر

نبذة للاب هنري لامنس اليسوعي (تتمّة)

وكان الكتاب الذي اختارهُ نونيوس ليعلّم بهِ تلميذهُ كليزد اللغة العربية كتاب الانجيل مضبوطًا بالشكل الكامل. فسُرَّ بهِ الطالب ولا سرور البخيل الذي يجد كنزًا مطمورًا. ولمّا انتهت ساعة التدريس رخّص لهُ معلمهُ بان يأخذ الكتاب الى منزلهِ فطار لذلك فرحًا واسرع الى غرفتهِ وانكبّ على مطالعة فصلهِ الاول اي سلسلة نسب المسيح للقديس متى حيث توفرت الاعلام الاعجمية. فاستدلّ على الحركات الثلاث وتعرّف بالضوابط كالهمزة والشدّة ولم يزل مثابرًا على المطالعة والدروس حتى أدرك طرائق العرب في تركيب الالفاظ. ثمّ اخذ يراجع تصريف الافعال ويتعلّمها مع حركاتها الخاصّة. وزاد فرحهُ اذ تمكّن من الحصول على كتاب وضعهُ الراهب الاسباني بطرس التلاعي (Pedro de Alcala) فأخذ عنهُ عدّة تعليمات افادتهُ في دروسهِ

وفي اثناء ذلك وقف نونيوس بين كتبهِ العتيقة على كتاب الاجرومية الذي كان استقى من موردهِ مبادئ العربية. فاراد ان يفسّرهُ لتلميذهِ. غير انّ كليزد لم يجد في